**المحور الرابع**

**إدريس ألوما (1580-1617)**

هو الماي إدريس الوما ملك إمبراطورية كانم-بورنو ، التي ظهرت شرقي بحيرة تشاد، رجل دولة بارز ، عرفت مملكة كانم بورنو تحت حكمه (1564-159 ) قمة المجد والاتساع و القوة. و ذلك بقضل مهاراته العسكرية و توسعاته، بالإضافة إلى الإصلاح الإداري وتنظيماته السياسية التي اتخذت طابعا إسلاميا. فلقد وحد مملكة البورنو مع كانم و طارد الأعداء. و لقد تمكنا من معرفة هذه الشخصية بفضل مؤلفه أحمد بن فرطوا**[[1]](#footnote-2)**.

**اولا: نسبه وظروف توليته العرش:**

هو إدريس بن علي ، والدته تدعى أسماء ، و هي بنت احد السلاطين البولالا المدعو عمر، بعد وفاة والده كان صغيرا جدا في السن لذلك انتقل عرش المملكة إلى ابن عمه دوناما، ثم إلى ابن هذا الأخير و هو عبد الله، و في نفس الوقت كانت والدته قد أخفته عن أعين بني عمومته لحمايته من بني عمومته باعتباره الوريث الشرعي للعرش، و كان أبناء عمومته يحالون الاحتفاظ بوراثة العرش لنسلهم من بعدهم، حيث تقول الروايات الشفوية بأنها أرسلته الى كانم عند والدها بحيث يكون في أمان هناك. كما تقول روايات أخرى بأنها بنت له قصرا في منطقة غامبارو(Gambaru)، بعيدا عن العاصمة غازارنامو حتى عزله عن القصر الملكي و عن الأعين، و عند وفاة عبد الله الذي لم يكن له أبناء، و عدم وجود أبناء ذكور للدوناما، ونظرا لغياب ادريس الذي كان في كانم، فانه تم تعيين ابنة عبد الله عيسا كيلي نغيرماماراماما (Aissa kili N’guirmamaramama)، التي استولت على االحكم و حاولت الاحتفاظ به و منعه عن الوريث الشرعي ادريس، و لكنها استسلمت بعد سبع سنوات من الصراع معه من 1573 الى 1580م.

بعد توليه العرشقام ادريس الوما بارحلته إلى الحج خلال سنوات حكمه الاولى، حيث مر في طريقة إلى مكة بمصر التي استفاد منها بالكثير من لااشياء منها اكتشافه للسلاح الناري حيث جلب معه في طريق عودته قافلة محملة بالبنادق، كما جلب معه مدربين اتراك لتعليم جيشه استعمال هذه الاسلحة، و اسس كتيبة من البندقيين مكونة من العبيد، فلقد استفاد من هذه الاسلحة لمحاربة القبائل الوثنية في الجنوب**[[2]](#footnote-3)**.

**ثانيا: انجازاته العسكرية:**

لقد عرف الحاج ادريس الوما عدة خصوم منهم الهوسا في الغرب ، والطوارق وتوبو . و الساو في الشمال و طردهم من منازلهم ، والبولالا في الشرق وتشير القصائد الملحمية انتصاراته 330 حرب وأكثر من الف معركة. تضمنت خبرته في توظيف معسكرات ثابتة بجدران و حصون، بالإضافة إلى محاصرة أعدائه لمدة طويلة كما استعمل سياسة الأرض المحروقة حيث أحرق الجنود كل شيء في طريقهم وخيلهم المدرعة وركابهم بالإضافة إلى استخدام الجمال البربرية في حروبه، ومركبات كوتوكو ، و استعمل والفرسان بلباسهم الحديدي و المدربين من طرف العثمانيين، كما كانت لديه فرق من حاملي الدرق و الرماح.

و يشير ابن فرتيوة بان إدريس الوما كان يشن هجوماته على أعدائه في أوقات متباينة و غير معلومة، و كانت معظم غاراته في الفصول غير الماطرة، بحيث ضمت تلك الغارات الشعوب الوثنيةو ذلك من اجل الحصول على الرقيق، أو من اجل اخضاعهم، و كانت كثيرة العددو مدربة جيدا، و كانت الطبقة الارستقراطية تركب الخيول مشكلة كتيبة الفرسان، و ببدلتها المطرزة، و أحذيتها الجلدية الحمراء، و سترة قصيرة و فضفاضة، و لجام احصنتها مزينة بالجلود الملونة، لبكن هذا الجيش يفتقد الى أي انظام او انضباط، حيث نجد الجنود الشباب يتباهون بسباقهم في الفروسية للتفاخر امام اهاليهم. أما بخصوص طريقة الحروب فهي بسيطة، فلقد كانت تقوم على النهب، و الغارات الفجائية، كما اعتمد على المستشارون العسكريون.

كان ادريس الوما يسلح جيشه من الأسلحة التي تحصل عليها من الدولة العثمانية ، وصف احمد بن فرتيوة واصفاً لاحدى حملات إدريس ما يلي: « **هرب عبد الجليل بن بي وهرب خوفا من جيشنا. لقد ترك زوجته و ابنة ياريما في بيته ، حيث تهرب منه عندما رأى تراب جيشنا يرتفع إلى السماء. لأنه كان على يقين من أن سلامة الرجل هو أفضل بالنسبة له من سلامة زوجته،فهرب من زوجته ، لأن الضرورة الشخصية أكثر إلحاحاً من عدم وجود زوجة** ».

**ثالثا: دوره الدبلوماسي:**

تميزت دبلوماسيته النشطة بعلاقات مع طرابلس ، ومصر ، والإمبراطورية العثمانية، حيث أرسلت له هذه الاخيرة بعثة دبلوماسية تتكون من 200 عضو عبر الصحراء إلى محكمة ألوما في العاصمة نجازار ــ غامو، اين تم توقيع على أول معاهدة مكتوبة أو وقف إطلاق نار في تاريخ تشاد.

ان النشاط الدبلوماسي و العسكري للملك ادريس جعله يصنف ضمن أنجح رجال السياسة في عصره، حيث اكتسب مكانة دولية كبيرة. فلقد كتب محمود كعت ، يقول: « **إن جمهور معاصرينا يتفقون بأن هناك أربعة سلاطين لا يحسبون السلطان الأعلى (سلطان القسطنطينية) للذكاء - سلطان بغداد ، سلطان القاهرة ، سلطان بورنو وسلطان ميلي** ». وصف الدكتور هاي بارث ، الرحالة الألماني في القرن التاسع عشر ، إدريس الوما بأنه « **أمير ممتاز ، يوحّد في نفسه أكثر الصفات المعاكسة: الطاقة التي تشبه الحرب ، إلى جانب درجة من الذكاء والذكاء ؛ الشجاعة ، مع الحذر والصبر. شدة مع مشاعر ورعة** ».

**رابعا: اصطلاحاته القضائية و القانونية:**

قام إدريس الوما بعدد من الإصلاحات القانونية والإدارية على أساس الشريعة الإسلامية. رعى بناء العديد من المساجد وقام بحج إلى مكة ، حيث رتب لإنشاء بيت يستخدمه الحجاج من إمبراطوريته. وكما هو الحال مع ساسة ديناميكيين آخرين ، دفعته الأهداف الإصلاحية التي وضعها ألوما إلى البحث عن مستشاري وحلفاء مخلصين وكافيين ، وكثيراً ما اعتمد على العبيد الذين تلقوا تعليمهم في المنازل النبيلة. سعت Alooma بانتظام للحصول على المشورة من مجلس يتكون من رؤساء أهم العشائر. طلب من الشخصيات السياسية الرئيسية أن تعيش في المحكمة ، وعزز التحالفات السياسية من خلال الزيجات المناسبة (ألوما نفسه كان ابن لأب كنوري وأم بولالا).

قام إدريس بإصلاح وتوحيد القضاء من خلال إنشاء نظام للمحاكم الإسلامية. حكم هو نفسه وفقا للنظرية السياسية الإسلامية ، واتخذ موقفا ضد ، من بين أمور أخرى ، الفجور في العاصمة. وقد كتب أوليفر وأتمور: «ترأس محكمة تشتهر بالمستوى العالي للمنازعات القانونية واللاهوتية». ومثل معاصريه بسنغاي كان ادريس يرعى التعليم ، ويشجيع العلماء من مختلف البلدان الأفريقية الأخرى من اجل الإقامة في بورنو**[[3]](#footnote-4)**.

**خامسا: انجازاته العمرانية:**

طور ادريس الوما الملاحة على نهر يوبي. وامر ببناء مراكب كبيرة لقواته البحرية. أما بالنسبة للنقل البري، فقد استورد عددا أكبر بكثير من الجمال لتحل محل البغال والثيران والحمير. وكان الماي العظيم أيضا بناءا عظيما، حيث أقام مساجد جديدة من الطوب في المدن التي حلت محل المباني القديمة. كما أسس بيتًا في مكة المكرمة لحجاج بورنو. وبعد سقوط سونغاي في عام 1591، أصبح الماي ادريس زعيم المسلمين السود بلا منازع، كما أصبحت كانم بونو الخلافة التي ورثت سنغاي.

**سادسا: تنظيماته الاقتصادية:**

عرفت مملكة كانم بورنو تحت سلطة ألوما ثراء و مداخيل معتبرة. وكان مصدر هذه الإيرادات هي الجزية (أو الغنيمة إذا كان يجب احتلال الأشخاص المتمردين) بالاضافة الى والغرامات الحكومية والرسوم التجارية. على عكس غرب إفريقيا ، لم يكن لدى المنطقة التشادية الذهب، لكنها كانت مركزيا لواحدة من الطرق الأكثر ملاءمة للتجارة عبر الصحراء الكبرى. فبين بحيرة تشاد وفزان ، تم وضع سلسلة من الآبار والواحات، ومن فزان كانت تمتد مسالك سهلة باتجاه شمال إفريقيا والبحر المتوسط، إذ تم إرسال العديد من السلع إلى الشمال، بما في ذلك النترون (كربونات الصوديوم) ، والقطن ، وجوز الكولا ، والعاج ، وريش النعام، والعطور ، والشمع ، والجلود ، ولكن التجارة الأكثر ربحية كانت في العبيد. وشملت الواردات الملح ، والخيول ، والحرير ، والزجاج ، والسكاكين ، والنحاس.

اهتمت ألوما باهتمام بالغ في التجارة والمسائل الاقتصادية الأخرى. ويُنسب إليه الفضل في تطهير الطرق من قطاع الطرق، وتصميم قوارب أفضل لبحيرة تشاد ، وإدخال وحدات قياس قياسية للحبوب ، ونقل المزارعين إلى أراضي جديدة. بالإضافة إلى ذلك ، قام بتحسين سهولة وأمن العبور من خلال الإمبراطورية بهدف جعلها آمنة إلى درجة أن "المرأة الوحيدة المكسوة بالذهب قد تمشي مع لا تخشى إلا الله.

**سابعا: وفاته:**

توفي ادريس الوما في احدى حروبه ضد قبيلة من الجنوب، ربما تكون قبيلة كامركوس(Gamergous)، حيث سقط في منطقة ألاو قرب اوجي حيث قُتل عن طريق حربة رماه بها احد الوثنيين كان متخفيا داخل احد الأشجار ، و دفن هناك قرب بركة ماء و التي ما تزال تحمل اسمه إلى اليوم.

1. **عنوان هذا كتاب** هو ( من شأن سلطان إدريس ألومه وما وقع بينه وبين أمراء بلاد كانم ) لمؤلفه الإمام أحمد البرنوي أشهر المؤلفات العربية التاريخية البرنوية، وقد قامت بطباعته مطبعة الأميرية في كنو، ويعد هذا الكتاب وغيره للمؤلف من أهمّ المصادر في تاريخ كانم برنو الإسلامي. هو كتاب يجمع مناقب (الماي إدريس ألومه) وفضائله، وما كان يلتزمه من مجاهدات تقوم على التقوى والتوكل على الله، كما أمدّنا هذا المؤلف بتفاصيل كثيرة عن غزواته وحروبه ضدّ الكافرين المشركين في المملكة. عدّ الإمام أحمد البرنوي أحد العلماء الأفذاذ الذين ظهروا في مملكة كانم برنو في العصور الوسطى، وقد ترك كثيراً من المؤلفات حتى لتشبه في مجموعها دائرة المعارف الكبرى تضمّ العلوم الشرعية والأدبية والتاريخية.

     وقد عمل كاتباً للسلطان في البلاط الملكي، ويشير حديثه الكثير عن القضايا والشرائع التي كان يفصل فيها للسلطان في العديد من شؤون الإدارة؛ إلى أنه كان مستشاراً للملك في الأمور الدينية وغيرها[[1]](http://www.alukah.net/culture/0/69061/" \l "_ftn1)، وأنه أدى دوراً خطيراً ملموساً في الشؤون السياسية في الإمبراطورية، وقد أتاحت هذه المكانة للمؤلف أن يرى بنفسه ومن قريب كلّ ما كان في هذه الدولة من عوامل قوة أو انحلال وضعف، وهو ما أعانه على كتابة مؤلفه العظيم في تاريخ مملكة كانم برنو.

   انظر: **آدم أديبايو سراج الدين**، رؤية نقدية لكتاب تاريخ الماي ادريس و غزواته، للامام احمد برنوي، مجلة قراءات افريقية، عدد الثالث،. ديسمبر 0227 م ، ص41. [↑](#footnote-ref-2)
2. **Ibid**, p77. [↑](#footnote-ref-3)
3. **شعباني نور الدين**، محاضرات في ممالك السودان الغربي، دار الجزائر للنشر، الجزائر، 2015، طبعة أولى، ص 89. [↑](#footnote-ref-4)